المحاضرة الأولى في مادة: المذاهب الفلسفة الكبرى

السنة الثانية ماستر عقيدة

إعداد: د. زهير بن كتفي

مدخل إلى المذاهب الفلسفية

مقدمة:

نظرا لارتباط الفلسفة الأوروبية بأسماء الأشخاص، فقد بلغت عبقرية الأفراد وإبداعات الفلاسفة إلى حد أن أصبحت فلسفاتهم مذاهب تزداد ظهورا ورسوخا كلما تقدم الفكر والوعي الأوروبي، خاصة في عصر الذروة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والنصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد كانت هذه المذاهب الفلسفية بديلا عن الأنساق القديمة التي مثلتها الكنيسة خاصة ثم نوعا ما وأرسطو طوال العصور الوسطى. وكانت الغطاء النظري الذي قدمه الوعي الأوروبي للواقع بعد عصر النهضة.

هذا، وإن كان لكل مذهب فلسفي عناصره ومكوّناته، نظرياته وأسسه، مناهجه وتطبيقاته، مقدماته ونتائجه، كما إن كان لكل مذهب بنيته الثلاثية في الهدم والبناء والجانب الضمني المستتر فيه، أو الدافع إليه؛ فإنه من هذا الاعتبار فسنحاول الحديث عن أهم مكوّنات المذهب الفلسفي، ثم عن بنيته العامة، ثم عن كيفية توالد المذاهب الفلسفية، وأخيرا، بصفة عامة، عن أهم مراحل الفكر الأوروبي، قبل أن نتطرق لكل مذهب فلسفي على حدة.

أولا: مكوّنات المذهب الفلسفي:

المكوّنات هي العناصر التي يتكون منها كل مذهب، والنظريات التي يضمها والمباحث التي يقوم بها، ومجموعة الآراء والنظريات التي ينتظمها. ويضم كل مذهب مكونات ثلاثة: نظرية في المعرفة، نظرية في الوجود، نظرية في القيم.

أ– نظرية المعرفة أو "الإبستيمولوجيا": تبحث في وسائل المعرفة وتجيب عن سؤال: كيف أعرف ؟ وتضم تحليلا للمعرفة الحسية والمعرفة العقلية والمعرفة الذوقية والمعرفة التاريخية.

-فقد يرد الحس إلى العقل فينشأ المذهب العقلاني.

-وقد يرد العقل إلى الحس فينشأ المذهب الحسي.

-وقد يقبل الذوق أو الوجدان فينشأ المذهب الحدسي أو الجمالي.

-أما المعرفة التاريخية، فقد يقبلها البعض وقد يرفضها البعض الآخر نظرا لعدم استقلالها وارتباطها بالحس والعقل في شروط يقينها ومقياس صدقها.

ب- نظرية الوجود أو "الأنطولوجيا": إجابة عن سؤال: ماذا أعلم ؟ وتضم تحليلات للموضوعات في العالم الخارجي المتوارثة منذ طبيعيات أرسطو مثل الحركة والزمان والمكان والصورة والمادة.

ج- نظرية القيم أو "الأكسيولوجيا": إجابة عن سؤال: ماذا أفعل ؟ بعد الانتقال من الخارج إلى الداخل، من الطبيعة إلى الإنسان، من المعرفة إلى الأخلاق، من النظر إلى العمل.

د- أما المبحث الرابع فهو الدين: أو المقدس، إجابة عن سؤال: ما أعتقد ؟ ما هي قواعد الإيمان ؟ بعد أن تحول الوعي الأوروبي من الدين إلى العلم، من الوحي إلى العقل، من المعطى القبلي إلى المعطى البعدي. فالإصلاح الديني في القرن الخامس عشر لم يقض على الدين في ذاته ولكنه أعطى تأويلا أخذ في الاعتبار معطيات العصر الجديد ونشأة القوميات.

1- استعراض بعض الأسماء الفلسفية لبيان تناولها لهذه المباحث:

- رنيه **ديكارت** René **Descartes** (1596-1650):

- نظرية المعرفة: "مقال في المنهج"، "قواعد لهداية الذهن".
- نظرية الوجود: "التأملات في الفلسفة الأولى" (مثلا خلق العالم وخلود النفس).
- نظرية القيم: "مقال في الإنسان".
- الدين: "في المسألة الثالة في أن الله موجود".

- باروخ **اسبينوزا** Baruch **Spinoza** (1632-1677):

- نظرية المعرفة: "رسالة في إصلاح الذهن".
- نظرية الوجود: "الأخلاق".
- نظرية القيم: "رسالة في الانفعالات".
- الدين: "رسالة في اللاهوت والسياسة".

- إيمانيول **كانط** Emmanuel **Kant** (1724-1804):

- نظرية المعرفة: "المنطق"، "نقد العقل الخالص".
- نظرية الوجود: "المبادئ الميتافيزيقية الأولى"، "نقد العقل العملي".
- نظيرة القيم: "أسس ميتافيزيقا الأخلاق".
- الدين: "الدين في حدود العقل".

– فريدريك **هيغل** **Hegel** Georg Wilhelm Friedrich (1770-1831):

- نظرية المعرفة: "ظاهريات الروح"
- نظرية الوجود: "المنطق وفلسفة الطبيعة"
- نظرية القيم: "أصول فلسفة الحق".
- الدين: "محاضرات فلسفة الدين".

– إدموند **هوسرل** **Hussrel** Edmund (1859-1938):

- نظرية المعرفة: "الأفكار".
- نظرية الوجود: "التجربة والحكم".
- نظرية القيم: "أزمة العلوم الأوروبية".

وتجدر الملاحظة في هذا الإطار إلى أن كل مذهب يضم جانبين: **الأول: نظري منهجي** ، يعرض للأسس النظرية العامة والمنهجية للمذهب. و **الثاني: تطبيقي موضوعي**، يطبق الأسس النظرية في شتى ميادين المعرفة الإنسانية، الأخلاق، السياسة، القانون، الجمال، التاريخ..إلخ. بعبارة أخرى، يطبق المنهج في موضوعات الفلسفة ومباحثها الرئيسية: المعرفة، الوجود، القيم. ويمكن عرض المذاهب الفلسفة الرئيسية الأربعة عند ديكارت وكانط وهيجل وهوسرل.

– ديكارت: يعرض الجانب النظري المنهجي لمذهبه الفلسفي في "قواعد لهداية الذهن"، ثم يلخص هذه القواعد أربع قواعد في "مقال في المنهج"، ثم يطبقها في "التأملات الفلسفية الأولى" وفي "مبادئ الفلسفة".

– كانط : يعرض للأصول النظرية والمنهجية لفلسفته النقدية في كتبه: "نقد العقل النظري" "نقد العقل العملي"، "نقد ملكة الحكم". ثم يطبقها في الدين: "الدين في حدود العقل"، وفي الأخلاق: "أسس ميتافيزيقا الأخلاق"، وفي التربية: "تأملات في التربية"، وفي السياسة الدولية: "مشروع السلام الدائم".

– هيغل: يعرض مذهبه النظري ومنهجه الجدلي في كتابه: "ظاهريات الروح" وفي "المنطق"، ثم يطبقه مرة في الفلسفة: "محاضرات في تاريخ الفلسفة"، ومرة في التاريخ: "محاضرات في فلسفة التاريخ"، ومرة في الدين: "محاضرات في فلسفة الدين"، ومرة في علم الجمال: "محاضرات في علم الجمال".

– هوسرل: يعرض مذهبه النظري ومنهجه الظاهرياتي في كتابه "الأفكار"، ويطبقه مرة في المنطق: "المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي"، ومرة في "التجربة والحكم"، ومرة في الفلسفة "الفلسفة الأولى"، ومرة في علم النفس "علم النفس الفينومينولوجي"، ومرة في فلسفة التاريخ "أزمة العلوم الأوروبية".

ويمكن عرض باقي المذاهب بنفس الطريقة وبيان جانبها النظري المنهجي ثم تطبيقاتها العملية كمشروع معرفي أولا ثم كمشروع عملي ثانيا.

ثانيا: بنية المذهب الفلسفي:

لكل مذهب بنية محددة مطردة تنتظم المذاهب كلها. وهي بنية تقوم على عناصر ثلاثة: الهدم، البناء –كما كشف عنهما المنهج الظاهرياتي في قاعدتي: "الرد" و"البناء". وكما عرضهما ديكارت في مرحلتي: "الشك" و"اليقين". وكانط في: "الظاهر" و"الشيء في ذاته"– وعنصر ثالث وراء عملية الهدم والبناء تكشف عن الدافع أو الباعث أو القصد أو الغاية أو الهدف.

1– الهدم: باعتباره الجانب الأول من المذهب، يقوم بنقض المذاهب السابقة وبيان عيوبها، وبالتالي رفع الغطاء النظري السابق عنها من أجل إفساح المجال لوضع الغطاء النظري الجديد. فبعد تطور الواقع وتكَشُّف بعض جوانبه الأخرى التي لم يتم اكتشافها في المذهب السابق يأتي المذهب الجديد ليلبس الواقع العاري ثوبا جديدا غير الثوب القديم إلى حين. وهكذا ما دام في الوعي الأوروبي قدرة على النقد والتغيير والهدم والبناء.

وقد يكون المنقوض عصرا بأكمله، كما هو الحال مع بداية الوعي الأوروبي ونقد **ديكارت** و"فرانسيس **بيكون**" Francis Bacon (1561-1626م) للقدماء، أي الكنيسة وإلى حد ما أرسطو والفلسفة المدرسية.

ولا يكاد يخلو مذهب فلسفي من جانب نقدي لمذهب سابق أو معاصر حتى يحدد نفسه أولا عن طريق النفي والسلب.

*ف**ديكارت**: ينقد القدماء، أي الفلسفة المدرسية. *و **بيكون**: ينقد "الأرغانون القديم". *و**سبينوزا**: يقوّض الحكم الإلهي اليهودي وحرفية النصوص الدينية وقدسيتها في التراث اليهودي القديم. *و **باسكال** Blaise Pascal (1623-1662م) ينقد الجزويت ويبين انتهازيتهم. *و **ليبتنز** Leibniz (1646-1716م) ينتقد جون لوك John Locke (1632-1704م) واعتباره الحس مصدر كل شيء بما في ذلك العقل. ويكتب "المحاولات الجديدة" رداً على "محاولة في الفهم الإنساني" للوك. *و**كانط**: ينتقد شك دفيد هيوم David Hume (1711-1776م). *و**هيغل**: يرفض آلية كانط والفلسفة النقدية. *و **هوسرل**: يرفض مادية وتجريبية علم النفس. *و **برغسون** Henri Bergson (1859-1941م) عقلانية المذاهب المثالية ومادية المذاهب التطورية.

2- البناء أو التكوين: وهو الجانب الثاني الذي يقوم عليه المذهب، وذلك بإعادة صياغة مذهب جديد بناء على أخطاء المذهب المنقوض لإكمال جوانب النقص فيه، وإبراز ما خفي عنه، آخذا في الاعتبار المكتسبات الجديدة للوعي الأوروبي. وكمثال على ذلك: أن "أنا أفكر" Cogito عند ديكارت جاءت ضد "أنا أؤمن" Credo في العصور الوسطى. و"الحدس" عند برغسون في مقابل "العقل" عند العقليين و"الحس" عند التجريبيين. و"الوجود" عند الوجوديين ضد "الماهية" عند المثاليين.

إذاً فالهدم والبناء واجهتان لعملة واحدة. فيمكن قلب الهدم فيصبح بناء، وقلب البناء فيصبح هدماً. ومن هنا أصبحت هذه المذاهب نسبية والحقيقة متغيرة.

وقد كان العنصر الدائم في جدل الهدم والبناء هو روح العصر، والظروف الاجتماعية، والمرحلة التاريخية؛ أي تاريخية الوعي الأوروبي على عكس ما قيل بعد ذلك وروجت له أجهزة الإعلام الغربية ورجناه نحن العرب معها، من إطلاقية الوعي الأوروبي، وشمول الحضارة الأوروبية وعالميتها كممثل للحضارة الإنسانية جمعاء.

3- الهدف غير المعلن: وهو الجانب الثالث المستتر والضمني، الذي تم من أجله الهدم والبناء، الغاية القصوى من التفلسف، البواعث الشعورية. كان هدف برغسون مثلا الحرص على حياة الذات الباطنية بعد أن تم تفريغها إلى صورة عند المثالية ومادة عند التجريبيين. على كل حال سوف نحاول التعرف على هذا الجانب من خلال دراستنا لبعض المذاهب الفلسفية.

ثالثا: توالد المذاهب الفلسفية

تتراكم المذاهب الفلسفية ويتوالد بعضها عن بعض. يبني كل فيلسوف لاحق على الفيلسوف السابق، ويكتب عنه أحيانا شرحا أو قراءة أو نقداً. ولما كانت المذاهب الفلسفية وجهات نظر لأصحابها يشرح بعضها بعضا لمزيد من التأييد والبرهان، أو يقرأ بعضها بعضا لمزيد من التأويل والإكمال؛ ظهرت ثلاثة نماذج من توالد المذاهب: إما الاستمرار وإما الاستمرار مع الانقطاع وإما الانقطاع. والحقيقة أنه لا توجد فواصل حاسمة بين هذه النماذج الثلاثة، بل يوجد مجرد تمايز بينهما.

ويمكن إعطاء نماذج من توالد المذاهب الفلسفية:

– **عن طريق التواصل والاستمرار**: من ديكارت إلى ليبتنز، وهو ما عرف بعقلانية القرن السابع عشر. من لوك إلى هوبز إلى هيوم وهو ما عرف بتجريبية القرن السابع والثامن عشر. من "سورين كيركغارد" Kierkegaard (1813-1855م) إلى " مارتن هيدغر" Martin Heidegger (1889-1976م) إلى "جون بول سارتر" J.P.Sarter (1905-1980م)، أو من كيركغارد إلى "كارل ياسبيرس" Karl Jaspers (1883-1969م) إلى "غبريال مارسيل" Gaberiel Marcel (1889-1973م) في وجودية القرنين التاسع عشر والعشرون ملحدة أو مؤمنة.

– **أما نموذج التواصل والانقطاع**: من ديكارت إلى سبينوزا. من الثنائية إلى الأحادية. من كانط إلى "فريدريك نيتشه" F.Nietzsche (1844-1900م). قراءة "كارل ماركس" Karl Marx (1818-1883) لـ"ديموقريطس" و"هيرقليطس" على أنهما مؤسسا الجدل المادي،. قراءة برغسون لـ"أفلوطين" على أنه أول من اكتشف الحدس. قراءة كارل ياسبيرس لـ"نيتشه" مرتين على أنه مؤمن مقنع إنقاذا للمسيحية من تقويض نيتشه لها.

– **والثالث هو الانقطاع والتضاد**: والتقابل، مثل جون لوك في "محاولة في الفهم الإنساني" إلى ليبتنز في "المحاولات الجديدة"، دفاعا عن العقل ضد الحس. من هيوم إلى كانط دفاعا عن القبلي ضد الشك فيه. من هيغل إلى كيركغارد دفاعا عن الوجود ضد العقل. من ديكارت إلى سارتر دفاعا عن الأنا الموجود ضد الأنا المفكر.

فكل المذاهب التي تنتهي بلفظ "الجديدة" مثل " الهيغلية الجديدة" أو "الكانطية الجديدة" أو "الواقعية الجديدة"، إنما هي مرحلة ثانية من الفعل المعدل أو التوسط بين الفعل ورد الفعل.

رابعا: مراحل الوعي الأوروبي:

بدايات الوعي أو الفكر الأوروبي: عصر الإحياء في القرن الرابع عشر، والإصلاح الديني في القرن الخامس عشر. وعصر النهضة في القرن السادس عشر.

ولكن يمكن تحديد أربع مراحل مركزية لتطور الوعي الأوروبي في العصور الحديثة، حيث تجلى الجانب العاقل في الوعي الأوروبي في أربع فلسفات على مدى أربعة قرون متتالية: العقلانية في السابع عشر، التنوير في الثامن عشر، العلم في التاسع عشر، وأزمة الإنسان والعلوم الإنسانية في القرن العشرين.

1- كانت العقلانية في القرن السابع عشر، والتي بدأها ديكارت، تتويجا لنضال العقل في عصر النهضة، فقد أصبح للعقل سلطانا على كل شيء: الدين، الفلسفة، العلم، السياسة، الاجتماع، الأخلاق، القانون.

2- في عصر التنوير في القرن الثامن عشر تم تفجير العقل في المجتمع، فاندلعت الثورات واهتزت الأنظمة وسقطت العروش، وخرجت أفكار الحرية والعدالة والمساواة والتقدم والإنسان والطبيعة والتاريخ. وتحولت الفلسفة إلى ثورة، والفيلسوف إلى كاتب للجماهير وقائدا لهم. لقد تحول العقل من ثورة في العلم إلى ثورة في المجتمع، ومن انقلاب في النظر إلى انقلاب في العمل، ومن قطيعة في المشروع المعرفي إلى قطيعة في النظام السياسي.

3- في عصر العلم والثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، وقد بلغت المادية في نصفه الثاني مع التطورية الداروينية والماركسية ذروتها. وسرعان ما تحول المشروع المعرفي إلى مشروع عملي، وتم الانتقال من العلم إلى الصناعة، ومن تراكم رأس المال الصناعي عند أصحاب رؤوس الأموال إلى تراكم البؤس العمالي لدى الطبقة العاملة. وكثرت الاكتشافات العلمية والاختراعات الحديثة. وحلت الآلة تدريجيا في محل الإنسان في الانتاج، وظهرت طبقة العمال، وبدأت بذور الثورات الاشتراكية، وبلغ الحد الاستعماري أوجه.

4- في أزمة القرن العشرين: بدأت تتكشف حدود المراحل السابقة وهدمها رأسا على عقب، والانتقال من العقلانية إلى اللاعقلانية والعبث عند الوجوديين، فانكشفت الأزمة في الوجودية وعدميتها، وفي البراغماتية وإنكارها المعيار النظري للصدق.

- وحدثت الثورة الصناعية الثانية، عصر التكنولوجيا والحاسبات الآلية والهندسة الوراثية في نفس الوقت التي بدأت هموم القرن الواحد والعشرين، والسباق نحو عزو الفضاء.
- وبدأت أزمة الوعي الأوروبي ليس فقط في العلم بل أيضا في الممارسة: حربان عالميتان على مدى عشرين عاما، وقنبلتان ذريتان، وترسانة من السلاح تكفي لتدمير الكون. وكما بدأ الوعي الأوروبي مساره في "الأنا أفكر"، فإنه انتهى في "الأنا موجود".

خامسا: خلاصة ونتائج

1- لقد طُبعت العقلية الأوروبية بطابع خاص، نتيجة توالد المذاهب الفلسفية وطبقا لقانون الفعل ورد الفعل والتوسط، وتكوّن لها مزاج خاص وأصبح لها نظرة خاصة للأمور.

2- فقدت التوازن وضاع منها التكامل؛ وفي كل مرة تضع ما رفضته سابقا أو ترفض ما وضعته من قبل. وأصبح من الصعب عليها إدراك الظاهرة الظاهرة نفسها في جميع جوانبها في آن واحد. أصبحت عقلية وحيدة الجانب أحادية الطرف.

3- ونظرا لأنه لا يوجد شيء إلا ويمكن الشك فيه، بحيث لم يعد هناك يقين، وأنه لا يوجد بناء إلا ويمكن هدمه بحيث لم يعد هناك شيء ثابت، اتسم الوعي الأوروبي بالحيرة وعدم الاستقرار، والبحث الدائم عن شيء لا يمكن تثبيته أو التأكد من وجوده.

4- أصيب الوعي الأوروبي بالحيرة الدائمة، أصبح قلقا لا يستقر له حال على منهج أو موضوع، نتيجة أو غاية. يحاول مرة بالعقل ومرة أخرى بالحس ومرة ثالثة بالوجدان، وفي كل المرات لا يدرك إلا الأجزاء. (محاولة العلوم الإنسانية الأوروبية في الاعتماد على نموذج العلوم الرياضية والطبيعية في اليقين).

5- أصبحت العقلية الأوروبية مكتسبة وفقدت فطرتها ونورها. أصبحت وليدة التاريخ وحصيلة التجربة الأوروبية الخاصة. خسرت نفسها وإن توهمت أنها كسبت العالم.